د/ هشام عباس

الخاتم

هز القاضي رأسه محاولا نفض الأفكار العنيفة التي تجتاح رأسه وتمنع عنه النوم دون جدوى. .

كانت تلك القضية التي هزت الرأي العام محور تفكيره وكيف لا وهو سيحكم فيها غدا. . مقتل واحد من أبرز شباب رجال الأعمال ليلة عرسه على يد صحفي مغمور. .

تبدو القضية سهلة فالقتل تم في قاعة العرس في ذلك الفندق الشهير وسط مئات المدعوين والقاتل ضبط متلبسا بجريمته وأداة الجريمة في يده فما المشكلة إذن فالقاتل اعترف بجريمته. . إن القاضي يستطيع أن يصدر حكمه وهو مستريح الضمير. .

ولكن تفاصيل المشهد كانت أعمق من هذا التصور البسيط. . كان هناك دفاع الفتى عن نفسه. . هو شاب حديث التخرج رقيق الحال كانت مهمته تغطية حفل الزفاف الباذخ لحساب صحيفته. . كان ذلك الحفل جديرا بأن يبعث في نفسه السعادة لمشاهدة حدث لا يتكرر لأمثاله من البسطاء ولكنه في الحقيقة كان يشعر بمرارة لا حدود لها نكأها حفل الزفاف. .

مرارة شاب في مثل عمر العريس الثري. . شاب له حبيبة اقتحمت أبواب قلبه منذ رآها في الجامعة وهو مازال بعد طالبا. . تلك الأبواب التي كان يحرص على إغلاقها بإحكام ولِمَ لا وهو يعلم يقينا أنه لا قبل له بالحب ولا بالزواج. .

ولكنها كانت من الجمال والرقة والوداعة على جانب باهر جعله لا يستطيع المقاومة. . ومن يقاوم ملاكا يهبط من سمائه الغنية إلى أرضه الفقيرة الجافة ليعمرها ويدفع في مسامها بدماء الحياة. .

وعاش في حلم لذيذ. .
ولكنه سرعان ما أفاق منه على كابوس العجز والفقر إذ لم يستطع إبقاء الملاك في أرضه فطار إلى سمائه مرة أخرى تاركا أطنانا من الحزن والحسرة تجثم على قلبه. .
كان يتمنى أن يرفض الذهاب ولكنه لم يستطع خوفا من فقدان الوظيفة التي جاءت بعد معاناة كبيرة. .
وذهب للحفل وعقله يلتهب بصراع خفي بين حرمانه البين والبذخ الفاضح الذي سيشهده. .
ارتدى أفخر ملابسه وذهب للحفل. .
شعر أول ما شعر بالانبهار والضآلة في آن واحد. .
نظر لملابسه الرثة قياسا لما يراه أمامه وحمد الله على الزحام الذي لن يعطي أحدا الفرصة لينظر له أو حتى يحس بوجوده. .
ما كل هذا البذخ والإسراف. . هل يشعر هؤلاء أن هناك في ذات الكون الذي يحيون فيه أناسا مثله. .
لم يشعر بالحقد ولكن شعر بالعجز. . بالضآلة. . بعدم الفهم. . لماذا هذا الفارق الضخم. . لماذا يحلق البعض في السماء بينما يغوص آخرون في الوحل. .
إن جزءا بسيطا من تكاليف هذا الحفل كان كفيلا بأن يحقق حلم حياته ويدخله جنة السعادة مع ملاكه الصغير. .
وتوالت على عقله المرهق الذاهل مشاهد الحلم الذي عاش في ظله لسنوات واستوقفه مشهد الوداع. .
كانت حزينة دامعة ولكنها كانت جميلة. . لم يستطع الحزن أن يحجب

بهاء طلعتها. . كان قلبه يتلوى في ألم لأنه سيحرم هذه الروح الجميلة ولأنه لا يستطيع محو هذا الحزن عن الوجه الذي كان دائما مشرقا بالأمل والطموح. .

لم يتحدثا. .

ظلا صامتين وتركا لعيونهما العنان تتزودان لفراق طويل. .

ثم نهضت وفي عينيها دمعة سالت على خدها الأسيل فمد يده ليلتقطها وود لو استطاع أن يستبقيها في يده ولكنها تبخرت ككل آماله. .

وعاد عقله يشتعل بالألم وعاد قلبه يسير في تيه العجز والمهانة. .

ولكنه انتبه فجأة على صوت موسيقى تلك الأغنية الشهيرة. . رأى العريس من خلال عيونه الزائغة يلتقط ذلك الخاتم الماسي ويستعد لإدخاله في إصبع العروسة وهما يتبادلان نظرات وبسمات السعادة. .

كان الخاتم يتلألأ وسط بحور النور التي تسيل في القاعة وكان لتلألئه وقع عجيب على عقل الفتى المسكين. . العقل الذي أظلمه الفقر والظلم. .

وانطلقت الفكرة من ظلام العقل إلى حيز الواقع. .

إن هذا الخاتم وحده كفيل بحل مشكلته. .

ماذا لو اختطفه من يد العريس وهرب. . لا أحد يعرفه هنا ولن يستطيعوا الإمساك به فأطنان الدماء التي تتدفق في قلبه النازف ألما كفيلة بأن تجعله يطير من القاعة. .

ثم. .

ماذا سيضير العريس. . إنه يستطيع شراء العشرات من هذا الخاتم. .

ودون تردد نهض مسرعا وانقض على العريس وانتزع الخاتم منه وسط ذهول الجميع. .

ولكن رجال الأمن تحركوا بسرعة للإمساك به. .
وحاول أن يطير. . أن يعدو. . أن يسير. .
ولكن قدميه تيبستا فجأة. .
سمرهما نظرة العريس له. .
نظرة احتقار وازدراء هائلين. .
لا يا سيدي. .
لست لصا. .
ولست بمستحق لاحتقارك. .
فليس ذنبي أنني فقير وأنك غني. .
ولست أريد غناك. .
فقط أريد الحياة. . وقد كافحت كثيرا لأنالها دون جدوى فحاولت اقتناصها.
وهبط العريس من كرسيه إلى أرض الفتى. .
ومد الفتى يده ليعطيه الخاتم. .
ولكن العريس تجاهل يده وصفعه صفعة مدوية أطارت صوابه وهو يدير بصره وسط الوجوه الذاهلة التي تراوحت بين الشفقة والاشمئزاز. .
لماذا؟
لماذا كل هذا الذل وتلك المهانة؟
ألست إنسانا من حقه أن يحلم ويعيش ويحقق حلمه؟
أليس لي قلبا يستحق أن يلتقي بمن يحب؟
ولم يدر بنفسه وهو يختطف مسدس رجل الأمن ويردي العريس قتيلا. .
تجمدت أحاسيسه بعدها وهو يقتاد إلى قسم الشرطة. .
وظل صامتا حتى مثل أمام المحكمة. .

اعترف بجريمته. .
ولكنه لم يصمت مكتفيا بذلك. .
بل ظل يصرخ. .
لست أنا الجاني. .
أنا المجني عليه. .
لقد قتلت مرة. .
ولكن المجتمع قتلني مرات ومرات. . المجتمع الذي لا يشعر بي ولا باحتياجاتي. .
لست أطلب البراءة ولكن أطلب العدل. . أن يحاكم المجتمع الذي قتلني طيلة حياتي كما أحاكم. .
وعاد القاضي يتململ في فراشه محاولا الهرب من أفكاره. .
كان قد دون حكمه بناء على الدلائل والقرائن. .
ولكنه لم يكن مستريحا. .
كان يشعر أنه لم يحقق العدل. .
ولكن ماذا كان باستطاعته أن يفعل؟
وعاد يحاول الهروب من دوامة الأفكار. .
٤ ديسمبر ٢٠١٤

****